امرأتان عظيمتان
من دولة المغول

للدكتور محمد بهجت

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

وأما « ممتاز الزمان » أو « ممتاز محل » ، واسمها الأصلي أرجومان بانو بيجم ففارسية الأصل أيضا . ولدت عام ١٥٩٤ م أبوها عبد الحسن بن اعتماد الدولة الذي عرف فيما بعد باسم « آصف خان » . التحق في صباه بخدمة « أكبر » وبلغ مركزا في عهد ابنه « جاهان جير » ثم أرفع مركز وهو رئيس وزراء الإمبراطورية ، ومستشار الإمبراطور ، ومندوبه في مفاوضاته الدبلوماتية ، وحامل لقب يمين الدولة — في عهد «شاه جاهان» وقد رأينا فيما سبق كيف ساعد هذا الرجل « شاه جاهان » على اعتلاء العرش ، وكيف أصبحت ابنته « ممتاز محل » إمبراطورة من بعد عمتها « نور جاهان »

تزوجت ممتاز الأمير « كرام » عام ١٦١٢ م وعمرها إذ ذاك ثمانية عشر عاما . أما هو فكان يكبرها بأربع سنوات . فأحب كل منهما الآخر حبا عميقا ، صادقا قويا لم يرو التاريخ مثله رافقته في جميع غزواته ، وقاسمته التشريد والحرمان ، وذاقت معه حلاوة النصر ومرارة الهزيمة ولاسيما في أواخر عهد أبيه، فكانت بحق الزوجة المثالية ، وكانت نعم الصديق والمرشد

كانت ملكة جمال عصرها حتى لقد سماها بعض المؤرخين فينوس الشرق . ويظهر أن جمالها كان ينطوي على رقة متناهية وأنوثة جارفة ، وروح عذبة وادعة ، وسريرة صافية نقية ، وطبع هادئ وخلق رزين ، وبذلك بزت عمتها التي اتسمت بالمكر والدهاء ، وبالفروسية وغيرها مما يغلب في طبائع الرجال . ومع هذا الجمال الهادئ الوادع حباها الله عقلا راجحا ، ورأيا صائبا ، وقريحة وقادة ، وذكاء نادرا في غير خبث أو دهاء . وما كان زوجها الامبراطور يبت في شأن من شؤون الدولة الهامة إلا بعد أن يستشيرها ، ولا يقدم على أمر جسيم إلا بعد الاستئناس برأيها وظلت حاملة لخاتم الملك مدة طويلة إلى أن نزلت عن تلك الوظيفة لأبيها . ومع ذلك فإن الدور الذي لعبته في سياسة ومصاير الامبراطور لم يكن بارزا قويا ضخما مثل دور « نور جهان »

وكانت مثل عمتها سخية كريمة إلى أبعد حدود السخاء والكرم ، لم تبخ من وراء ذلك شهرة أو كسب أنصار وأعوان ، بل فاقتها في الحدب على الفقير ، والأخذ بناصر المسكين والضعيف ، حتى لكان قلبها الرقيق يتقطع حزنا وأسى لمجرد مشاهدة الفقراء والبؤساء ، وتبادر لتوها بمسح جراحات نفوسهم ببلسم رحمتها ، وندى كفها ، ورفيع إنسانيتها ، مما جعلها سيدة عصرها . وكم من مرة أنقذت أرواحا أمر الامبراطور بإزهاقها في ساعة غضبه ، وردتها على أصحابها سعيدة شاكرة

ولا غرو إذا أحبها الامبراطور ذلك الحب الجارف الفذ ، وعندما اعتلى العرش زادت مظاهر حبه لها بما كان يغدقه عليها من الأموال والجواهر ، وما كان يهديه لها من وافر الهبة والاحترام في الحفلات الخاصة والعامة . ويظهر أن شدة رفعته في إسعادها جعلته ينفق بسخاء . بل وبيذر تبذيرا شنيعا أثر في

ولسنا ممن يروم نصب العداء وعرقلة أعمال العقل البشري ما دام يسعى لتحقيق غرض أمثل وعمل أسمى

أما أن هـــذا العقل يسعى لأغراض لا تمت إلى الإنسانية والخير بصلة فمعناه أن العقـل مجرم أو أنه مريض فارق في شذوذه وأفكاره الكسيحة التي كتب لها الموت قبل أن تكون الحياة رائدها ..

كما أننا لا نتهاون في أي وقت من الأوقات لمحاسبة (الأنا) الهاربة من الميدان ، أمام تأثير النزعة المكبوتة التي لم تجد لها طريقا في الحياة الشعورية ، والحقيقة أن علم التحليل النفسي الحديث قد أثبت مبلغ ما تؤثره هـذه التصرفات وتخلفه من أمراض خطيرة تدفع المصابين بهـــا إلى نهاية غاية في التعاسة والشقاء !

وقبل أن أختتم هذه الكلمة أود أن ألفت نظر قراء (الرسـالة) الغراء إلى كلمتي القادمة بعنوان (الوجودية في نظر التحليل النفسي !)

بغـداد — شاكر العسكري

خزينة الامبراطورية أسوأ تأثير . ففي احتفاله الأول بعيد النيروز (عام ١٦٢٨ م) أمر بعرشه الثمين فنصب في حديقة القصر اليانعة التي غصت بالزبدة والتهاويل ، وحفت به زوجته وأولاده والأمراء والأميرات وكبار الحاشية وسط مظاهر الترف والعظمة التي لم تشهد مثلها دولة المغول ، والتي كان يحرص عليها «شاه جاهان» كل الحرص ، وأراد أن يبلغ بها النهاية . وعندئذ تعطف وأطلق يده بالعطاء فخص زوجه بنصف مليون ربية ، وكل ابن من أبنائه الأربعة بمائتي ألف ، وابنته الكبرى «جاهان آرا» بمثلها ، وابنته الصغرى «روشان آرا» بخمسين ألف ربية ، هـذا عدا ما أغدقه على حميه «آصف خان» وعلى بقية الحاشية

ثم إنه اندفع في إنشاء عدد وافر من الأبنية العظيمة التي تعد من أجل وأروع ما بني بالهند ، بل وفي العالم أجمع . ويظهر أنه حاول بذوقه الرفيع وموارد الامبراطورية الواسعة أن يأتي بما لم تأته الأوائل ، وأن تكون له قصور فخمة تتفق وعيشة الترف التي انتهجها وحرص على التوسع فيها لأبعد حدود التوسع . وكان من نتيجة ذلك أنه أخلد إلى الدعة والملذات ذات العيش والرفاهية ، ولم يعد يفكر في الغزوات وفي خوض غمار الحروب وإخضاع الثورات كما كان في صدر شبابه . أحب السلم والبناء وكرس لهما كل وقته وجهوده وترك شؤون الامبراطورية لوزرائه وأبنائه . ويظهر أن بعض المؤرخين ظلمه بقوله إنه كانت له الفاجارية لم يكتف بهن بل راح يبحث عن خليلات أخر بين نساء أمرائه وحاشيته . ولكن يصعب تصديق مثل هذه الرواية إذا عرفنا مقدار حبه لزوجته الجميلة المخلصة الوفية التي لم يقو على فراقها يوما واحدا ، والتي لم يتزوج غيرها من بعد وفاتها . ثم إنه لم تشب سعادتها الزوجية شائبة فكانا زوجين مثاليين

وفي عهده تطلع البرتغاليون إلى اقتطاع بعض أملاك الامبراطورية المغولية في شيء من القحة والجرأة ، وقامت سفنهم بأعمال القرصنة ضد السفن الاسلامية ، فضاق الامبراطور بهم ذرعا . ازداد سخطه عليهم عندما احتجزوا جاريتين من جواري «ممتاز محل» ، فأمر بطردهم من جميع أنحاء البلاد وتم له ذلك في وقت قصير بعد معارك طاحنة دمرت فيها جميع ممتلكاتهم

ومع أن حياتهما الزوجية لم تزد على ثمانية عشر عاما فقد أنجبت منه «ممتاز» أربعة عشر ابنا وابنة . وفي عام ١٦٣٠ م بينما كان «شاه جاهان» منشغلا بإخضاع حاكم قوي يسمى «خان جاهان لودي» خرج عليه ، ماتت «ممتاز محل» في مدينة برهان بور في ريعان شبابها وهي تضع مولودها الرابع عشر . وبموتها ماتت أحلام الامبراطور العظيم ، وتحطم صرح هنائه ، وبدأت نقطة تحول خطيرة في حياته فلم يعد يصبأ بنعيم الحياة ولذاذاتها ، حتى ولا بشؤون الامبراطورية ، وأصابه ذهول ووجوم لازماه إلى آخر أيام حياته . كان لا يفكر إلا في شريكة روحه ، ومنية فؤاده يذكره طلوع الشمس «ممتازاً» ويذكرها لكل غروب شمس ، على حد قول الخنساء . وأخيرا فكر في أن يبني لها ضريحا يضم رفاتها المقدسة ، ويعبر عن مقدار وفائه لها ، بل كعبة يتجه إليها بقلبه وبصره ، يطوف بها وهو يناجي بعض نفسه التي دفنت تحت أطباق الثرى ، فحمل رفاتها بعد ستة أشهر من موتها إلى مدينة أكبرابادحيث أقام لها جنازة ملكية فخمة ومأتما عظيما حافلا ، وبعد ذلك نقلت إلى أكرا حيث دفنت في «تاج محل» . ألهم الحزن والحب والوفاء الامبراطور أن يخرج إلى الوجود تلك التحفة الفنية الرائعة التي تقص على العالم قصة حبه . اختار لها الرخام الأبيض الصافي صفاء قلبها وروحها ، وأضفى عليه من جمال الهندسة والزخرفة ما يتناسب مع جمال وجهها وجسدها . ثم بث في كل ذرة من ذراته كل ما أراد أن يقوله أو يعبر عنه ، أو أحس به . ولقد لم يظهر ذلك البناء بديعا فحسب.. بل كأنه يهمس بشتى المعاني السامية ، ويمزج من الأحاسيس الدقيقة العميقة . ومما زاده روعة قيامه وسط تلك الحديقة البديعة الرشيقة التي ما زالت على شكلها ورسمها الأصلي . لو اطلعت عليه في الضحى أو في ضوء القمر لخلت أنك ترى ممتازا نفسها ، بجمال جسمها وروحها مغلفة في غلالة من نور ، باسمة حزينة . إنه تمجيد لجمال المرأة ، ولكل ما فيها من صفات سامية

اختار له الشاه موقعا جميلا على نهر جمنة الذي يخترق مدينة أكرا ، وحشد له الصفوة من المهندسين والخطاطين والفنانين والزخرفين والصناع ، وكان أكثر هؤلاء من الأتراك والفرس ،

بل ومن الايطاليين أيضا . وبعد دراسات واسعة أمر بالبدء فى العمل عام ١٦٣١ م . ثم فتح باب خزانته على مصراعيها وأخذ ينفق على إخراجه ببذخ عظيم . اشتغل فيه عشرون ألف عامل لمدة سبعة عشر عاما على حد قول بعض المؤرخين ، ولكن يظهر أن الانتهاء من بعض الزخارف والمحسنات كان بعد ذلك التاريخ بدليل العبارة التالية التى نقرؤها على أحد أبوابه « كتبه الفقير الحقير أمانت خان الشيرازى عام ١٦٣١ — ١٦٥٣ حيث انتهى منه »

لا يمكن لإنسان أن يدرك جمال هذا الضريح على حقيقته إلا إذا رآه عيانا ووقع تحت سحره المتجدد ، وحين أن أذكر هنا أن الامبراطور أصر على أن يكون لنفس تحفة ، وأثمن أثر .. فكان باب المقصورة من الفضة ، والستار الذى بداخلها من الذهب الخالص ، تحليها أبدع النقوش ، كما كان باب المقبرة نفسها من الفضة أيضا . وكان على القبر ستر من الحرير المرصع بصحائف اللؤلؤ ، كما كانت تعلوه الماسة اليتيمة المعروفة باسم « كوهينور » وكل ذلك نهبه « الجات » عندما فتحوا أكرا

جاء هذا الضريح أبدع ما أخرجه « شاه جاهان » من أبنية عظيمة لا نظير لها فى العالم ، وبعد ما أتمه كان يجلس على الضفة الأخرى من النهر ساعات طويلة يتأمله فى خشوع وحزن . ثم إنه فكر فى أن يقيم لنفسه ضريحا فى نفس المكان الذى اعتاد أن يجلس فيه ، وشرع فعلا فى البناء ، ويرى أساسه قائما على ضفة النهر تماما ، وكان يزمع أن يبنيه من الرخام الأسود . وليته عاش حتى أتم هذا العمل الفنى الجميل الذى لا يستطيعه إلا « شاه جاهان » وفيما هو منصرف إلى البناء ثار عليه ابنه « علم جير » المعروف باسم « اورنك ذائب » الذى استولى على أكرا وأسر أباه الشيخ الوقور الحزين وحبسه فى قصره الفاخر لا يخرج منه لمدة ثماني سنوات مات بعدها (١٦٦٦ م) والمعتقد أن الابن هاله ما رآه من إسراف والده ، وانصرافه من شؤون الامبراطورية التى كانت على شفا جرف هار ففعل ما فعل ولكنه كان يعامل أباه بكل ما هو جدير به من عطف واحترام . ولم يضن عليه بكل ما كانت تصبو إليه نفسه

وقفت طويلا أتأمل فى أسى ذلك المكان البديع من القصر الذى قضى فيه الامبراطور العظيم ثمانية أعوام فى الأسر ، تشرف عليه وترعاه ابنته المخلصة « روشان آرا » ثم خرجنا إلى شرفة تطل على النهر يرى منها التاج بعيدا إلى اليمين ، ويتوسطها برج من الرخام الجميل ، رائع الصنع ككل شئ فى القصر ، بل وكل شئ بناه « شاه جاهان » وبينما أنا ذاهل من روعة البناء والذكرى أشار الدليل بإصبعه إلى قطعة صغيرة من حجر كريم لونها أحمر داكن ، لا يتجاوز طولها ثلاثة سنتيمترات وعرضها سنتيمترا واحدا ، مطعمة فى جدار البرج ، وطلب منى أن أنظر فيها ففعلت ، وإذا بى أرى صورة التاج منعكسة عليها كاملة من ذلك البعد العظيم !!! وفى تلك اللحظة شعرت بقلبى ينقبض شفقة على ذلك الملك البائس الحزين الذى قضى ثمانى سنوات يتطلع إلى قبر محبوبته من الشرفة ومن تلك القطعة الصغيرة !! بعد أن باعدوا بينه وبينها .. فيالله من حب عظيم ، ووفاء نادر !! ومن يدرى ؟ فربما كان يتزود المسكين بآخر نظرة منه وهو يسلم روحه إلى بارئها

دفنوه فى قبر فخم إلى جانب قبرها تحت قبة التاج .. مع أنه لم يرد ذلك بدليل الضريح الذى وضع أساسه قبالة ضريحها على الضفة الأخرى للنهر . وكأنه لم يشأ أن يدنس هذا الهيكل المقدس جثمان آخر ، حتى ولو كان جثمانه هو

أثرت « ممتاز محل » بعقلها فى تسيير دفة الامبراطورية وأشرق جمال جسمها وروحها على العالم فترة قصيرة إشراقة الورد النضير ، فكانت المثل الأعلى للمرأة والزوجة . وأخيرا أثر موتها الباكر فى زوجها فخلد ذكرها بتحفة قلما يجود الزمان بمثلها ، وأهدى إلى العالم أعظم وأجمل رمز للحب والوفاء والإخلاص

محمد سليمان
مساعد البساتين

مراجع البحث
١ — « حضارات الهند » تأليف غوستان لوبون وترجمة الأستاذ عادل زعيتر
٢ — « الإسلام والدول الإسلامية فى الهند » تأليف محمد عبد المجيد البدء
٣ — الامبراطورية المغولية تأليف س.م جعفر (بالانجليزية)
٤ — تاريخ مختصر لشعوب الهند تأليف تارا شاند (بالانجليزية)